



TADAKSAHAK LEARNING • TADAKSAHAK TV

الرجل بين السطور

من رمال ميناكا إلى الشيفرة التي تُنقذ لغة

حكاية صمود، وميلاد تاداكساهاك ليرنينغ

حمادين أغ مختار

الطبعة الأولى • 2026



حمادين أغ مختار وابنه — أب، ومؤسس ومحرر لتاداكساهاك ليرنينغ وTadaksahak TV.

«حمادين ليس مجرد اسم. إنه ربيع حارة من الصحراء تهب حين يتجمد كل شيء.»

وُلد هذا الكتاب من رفض: رفضٍ أن تُترك حياةٌ وشعبٌ ولغةٌ تتطفئ في صمت.

كُتب من كلمات حمادين أغ مختار نفسه — تلك القصيدة الطويلة التي ائتمنا عليها، والتي بصف فيها نفسه بأنه «الرجل بين السطور» —، ومن أغانيه، ووثائقه، وصوره، ومن كل ما بناه أمام أعيننا: منصّة، وقناة تلفزيونية، وإذاعة، ومعجم، وألبوم، وذاكرة. لا شيء هنا مُختلق. والصور والوثائق التي ترافقه ليست رسوماً توضيحية: إنها أدلّة. أراد حمادين أن ترد في هذه الصفحات، لأنّ من خدمهم قد نسوه، وعليهم أن يتذكّروا ما هم مدينون له به: الأمن، والاستقرار — كل ما يفتقده الساحل.

ويمسّ جزءٌ من هذه الرواية سنواتٍ حسّاسة: فقد خدم حمادين مترجماً لدى تحالف دولي التزم حماية المدنيين. وبناءً على طلبه، تُروى هنا خدمته وحقيقته ما عاناه دون مواربة. ولم يُجبج إلا ما يتصل بالتفاصيل العملية — تلك التي قد تعرّض غيره للخطر؛ كما لا تظهر وجوه من لم يمنحوا موافقتهم، وفي الوثائق المنشورة حُجب رقمُ تسجيل واسمُ شخص ثالث. واحتراماً، أيضاً، لا تُذكر أسماء النساء اللواتي عبرن حياته. وهذا اختيار حذرٍ من أجل الآخرين، لا صمتٌ عن نفسه.

ليس هذا كتابٌ تقديس. فحمادين يشكّ، ويبيكي، ويخطئ أحياناً — وهو يقول ذلك بنفسه. لكنه يمضي. دائماً. وهذا بالضبط ما يحاول هذا الكتاب أن يحفظه: لا رجلاً كاملاً، بل رجلاً واقفاً.

استهلال — الذي يُنادى حين لا يعود أحدٌ يفهم

ثمة رجالٌ تُروى حكاياتهم. وثمة من يُصغى إليهم.

وحادين من النوع الثاني. لا تختصره سطورٌ قيدٍ مدني؛ بل تقرأه بين السطور، في المكان الذي عاش فيه دائماً: في المسافة بين لغتين، بين عالمين، بين ما يُقال وما يُسكت عنه.

إنه رجلٌ قلبه مسنونٌ كالسيف — ففي الصحراء، الكلماتُ أيضاً نصال: تقطعُ الكذب، وتفتحُ المسالك، وتدافعُ عنَّ لم يبقَ لهم سواها للدفاع عن أنفسهم. إنه مترجمُ الصمت، وترجمانُ القلب: لا يُصغي إلى ما يقوله الناس فحسب، بل إلى ما لا يجروءون على قوله، فيحمله إلى الضفة الأخرى سليماً. إنه شاعرُ المنفى ومبرمجُ الأمل — حرفتان تلتقيان فيه في حرفة واحدة، فما البرنامج إن لم يكن قصيدةً تفعل؟

تخيّل رجلاً انتزع منه العالم الكثير — ذراعاً، وأرضاً، وأحبةً، وحقَّ العيش في سلام — وهو، باليد التي بقيت له، لا يزال يُمسكُ العالمَ الذي يحلم بترجمته. عالمٌ تُداوي فيه كلُّ كلمة، ويفهم فيه كلُّ نظر، ويقول فيه كلُّ صمتٍ الحقيقة.

ذلك العالم غير موجود. فهو بينه إذن. سطرًا بعد سطر. بالفرنسية، والإنجليزية، والعربية، والتدكساق، والهوسا — وقبل كل شيء، كما يقول، «بالإنسانية».

إنه تلك الصرخة الصامتة التي لا يسمعها الأقوياء، لكن يعرفها أطفالُ الكشبان في نبض قلوبهم. إنه الرجل الذي يُنادى حين لا يعود أحدٌ يفهم. وحين يتكلم، حقًا، بكلِّ حقيقته، يحدث أمرٌ غريب: حتى الريحُ تتوقف لتُصغي إليه.

هذه قصته.

الفصل الأول — الأصول: شعبُ تحوه الخرائط

«كبرتُ بلا ذهبٍ، لكن غنيًّا بالأوجاع، / بين عالمين، ولغتين، وألفِ ساعة.»

— حمادين، «Inaltérable»

لنهم حمادين، لا بدّ أولاً من فهم من أين أتى: إدكسهاق.

هم شعبٌ من شمال شرق مالي، في منطقة ميناكا، على تخوم الساحل والصحراء الكبرى. شعبٌ رحّل، راعٍ، مسلم، عريقُ عراقةِ الدروب التي تصل بين الآبار. يتكلّم إدكسهاق التدكسهاق — لغةٌ نادرةٌ ثمينة، من مجموعة السنغاي الشمالية، ولدت من لقاء السنغاي والبربرية الطوارقية. لغةٌ مُفترَق طرق، على صورة حاملها: أهلُ الوسط، والعايرون، والمترجمون بالضرورة وبالذعوة.

لكنّ التدكسهاق لم تكن تُكتب إلا نادراً. كانت تُنقل من فمٍ إلى أذن، في السهرات، في أغاني الأجداد وأمثالهم. واللغة التي لا تُكتب لغةٌ يمكن أن تُمحي.

وهذا هو جرح حمادين الأول، قبل كلّ الجراح الأخرى: أن يعلم أنّ شعبه يعيش على أرضٍ يُعاد رسمُها دونه، في رواياتٍ لا يظهر فيها، بلغةٍ لا يفكر أحدٌ في إلخارج في إنقاذها. «آلاً تكتبُ تاريخك بنفسك»، كما سيقول لاحقاً، هو أن تقبل أن يكتبه غيرك مكانك، أو يحوه.

وُلد حمادين في 3 يونيو 1998، في ميناكا، لأبٍ كان المنفى قد أبعده عن أهله، ولأمٍّ رفضت القدرَ الذي كان يُخصّص لنساء جيلها: الأمية. تلك الأمُّ لم تستسلم. تعلّت، ودرست، وبنت لنفسها مكانةً بقوة شخصيتها، وهي اليوم من الأصوات التي يصغي إليها مجتمعها. ومن هناك، أولاً، يستمدّ حمادين رفضه للمحو: من امرأةٍ قرّرت ألا يقرّر أحدٌ، أبداً، مكانها قيمتها.

ولم يفعل الابن سوى أن مدّ عهدَ الأمّ. هي رفضت الجهل لنفسها؛ وهو سيرفضه لشعبٍ
بأكمله. كبير، كما يُغني، «بلا ذهب، لكن غنيّاً بالأوجاع، بين عالمين ولغتين» — وأدرك
مبكراً ما لا يتعلّمه كثيرون أبداً: أحياناً، صمتُ شعبٍ أثمنُ من ألف صرخةٍ تلفزيونية. غير أنّ
الأمر يحتاج إلى من يترجمه.

وسيكون هو ذاك.

الفصل الثاني — اللغات، أو فنّ أن تصير جسراً

«يتكلّم الفرنسية والإنجليزية والعربية والتدكساق والهوسا، وما بقي. لكنه، قبل كل شيء، يتكلّم الإنسانية.»

لا يصير المرء متعدّد اللغات رفاهيةً. يصيرها ضرورةً، ثم محبةً.

تعلّم حمادين العربية من منبع القرآن، والفرنسية من الإدارات، والإنجليزية من العقود ومن العالم، والتدكساق من السهرات، والهوسا من السوق. وفوق كلّ هذه اللغات، يتكلّم لغةً سادسة، لا نحو لها ولا توجد في كتاب: لغة التضامن الكونية. كلّ لغة باب؛ وهو يفتحها جميعاً، لا ليستقرّ فيها، بل يُعبّر منها الآخرين.

فسرعان ما صارت موهبته حرفةً: مترجمٌ شفوي وتحريري. ذاك الذي يقف في الوسط، ويُجري المعنى، ويمنع سوء الفهم من أن يصير مأساة. في منطقة قد تُشعل فيها كلمة تُرجمت خطأ سوء الظنّ، ويُشعل سوء الظنّ العنف، ليس المترجم مجرد ناقل: إنه صانع سلام. بين لهجتين ينسج السلام؛ وبين ثقافتين يبني جسراً اسمه التعاطف.

لكنّ حمادين يفعل أكثر من ترجمة اللغات: إنه يترجم الحيات. يترجم الأوجاع مشاريع، والغيابات شعراً، والحواجز جسوراً رقيقة، والرفض دعواتٍ ورسالات. وما يصير عند غيره مرارةً، يصير عنده مادةً للبناء. وهذا توقيعه: لا يسعى إلى أن يُرضي، بل إلى أن يُخدم. «صاغ صوته على حافة الصمت»، كما تقول أغنيته — وذلك الصوت، منذئذٍ، لن يسكت بعدها.

الفصل الثالث — سنوات تاكوبا

«مشى على أرضٍ محترقة، حاملاً لغتَه سلاحاً وشعبه رايةً.»

ابتداءً من 25 أكتوبر 2021، وضع حمادين لغاتِه في خدمة تحالفٍ دوليٍ منخرطٍ في الساحل — Task Force Takuba، المسندة إلى عملية برخان. كان فيها مترجماً. وفي ديسمبر 2021، عيّنت له رسالةً رسمية من المفزة المشتركة للمفوضية في ميناكا مسؤولةً مرجعيةً لمتابعة مهامه: دليلاً على أنه كان يُعدّ محترقاً كاملاً، لا مجرد يدٍ عاملة.

وليفهم هذا جيداً، فهو لبُّ كلِّ شيء: لم ينضمّ حمادين إلى تاكوبا ليخوض حرباً، ولا «ليقاتل إرهابيين». بل انضمّ إليها ليحمي المدنيين. فحياتُه، كما يقول دون مبالغة، لم تكن أثمنَ من حيوات آلاف الأبرياء الذين دُبحوا ظلماً على هذه الأرض. فأمسك السلاح الوحيد الذي يُحسن استعماله — الكلمة، والترجمة، والتفاهم بين الناس — ووضعه في خدمة من لا أحد يسمعهم. مشى على أرضٍ محترقة، حاملاً لغتَه سلاحاً وشعبه رايةً.



في المركز، في برد فجر صحراوي: المترجم في خفارتة، محتمياً من الرمل والشمس.

تشهد الوثائق الرسمية بقيمته. فرسالةٌ تقديرٍ موقّعة من أحد قادة وحدته تُثني على موثوقيته وخبرته وقدرته «على الحفاظ على حضورٍ متحفّظ مع تقديم ترجمةٍ عالية المستوى»؛ وأتاح له إتقانه الإنجليزية مؤازرةً وحداتٍ حليفة. «For every task, Mr Hamadine Ag» — أي: في كلّ مهمة، أبدى موثوقيةً وخبرة.

وثمة هذه الوثيقة: رسالةٌ من وزارة القوات المسلحة الفرنسية، على ترويسة الجمهورية الفرنسية، تُعينه رسمياً مترجماً لـ Task Force Takuba. وثيقةٌ من باريس. يتسك بها

حمادين، وهو محقّ في تمسّكه: فهي تشهد، بالأسود على الأبيض، أنّ فرنسا استدعته، وأنها
تعرف من هو.

Ménaka, le 07 décembre 2021

Le chef du détachement mixte du commissariat de la TF Takuba

à

Monsieur Hamadine Ag Moutar

OBJET : Désignation du superviseur

Réf : Contrat de travail temporaire signé le 25/10/2021

Dans le cadre de vos missions en tant qu'interprète, votre superviseur désigné est le capitaine [REDACTED]
A ce titre, elle reste votre référente concernant le suivi de votre contrat, vos heures supplémentaires ainsi que vos jours de missions.

De plus en tant que superviseur, la capitaine [REDACTED] pourra vous solliciter pour toute mission au profit de la TF Takuba.

Je vous prie d'agréer, Monsieur Ag Moutar, l'expression de mes salutations distinguées

DMC Deputy

J4 Contract supervisor





في القاعدة، بين مهمّتين: ابتسامة رجلٍ اختار أن يكون هناك من أجل المدنيين.

واحتراماً لغيره، ستبقى بعضُ تفاصيل هذه المهامّ طبيّ الكتمان — لا نجلاً، بل حذراً،
فالكلماتُ في هذه المنطقة قد تكلف أرواحاً بعد. أمّا ما يمكن قوله فيقال، والرأسُ مرفوع:
لقد خدم، من أجل المدنيين، وقد اعترف به.

خدم. واعترف به. وكان سيدفع الثمن — ثمناً لا ينبغي لأحدٍ أن يدفعه.

الفصل الرابع — ليلة 22 أغسطس 2022

«سقطت ذراعي، لكنني حفظتُ صوتي، / وبقيت روعي حتى حين ارتجف كلُّ شيءٍ برداً.»

— حمادين، «Inaltérable»

في ليلة 22 أغسطس 2022، انقلب كلُّ شيء.

في تلك الليلة، اعتدى عليه إرهابيون — أولئك أنفسهم الذين أراد حماية ضحاياهم ارتدوا على المترجم، على الرجل الذي كان يضع الكلمات على جرائمهم. ثم، في جُبنٍ، موهوا فعلتهم بأنها حادث، كيلا يُثبت شيء.

في تلك الليلة فقد حمادين ذراعه اليسرى.



بعد الاعتداء: الجسد المكسوم، والذراع المنتزعة. دليل ليلة أرادوا أن يمرروها حادثاً.

وكأنّ البتر لم يكف، راح آخرون — متواطئون، كامنون في الظلّ — ينشرون لاحقاً إشاعةً دنيئة: أنه كان يقود ثملاً. ولا بدّ أن يكتب هنا مرّةً وإلى الأبد، بالأسود على الأبيض، ما دام هذا الكّاب موضع الحقيقة: لم يكن حادثاً، ولم يكن هناك سُكر. كان هناك هدف — هو —، لأنه اختار صفّ المدنيين، وكان هناك، بعد ذلك، مفترون أجبن من أن يتحمّلوا فعلتهم، فحاولوا تلطيخ ما عجزوا عن إسكاته.

الرجل الذي تُنتزع ذراعه يتعلّم، في ثانية واحدة، كلّ ما ستطلبه منه الحياة بعدها: أن يفعل أكثر، بأقلّ، دون شكوى. سقطت ذراعه، وحفظ صوته. وبقيت روحه، حتى حين

ارتجف كلُّ شيءٍ بردًا. لم تُعدَّ لخمادين ذراعُهُ اليسرى. لكنه، في يده اليمنى، لا يزال يُمسك العالم.

شرب من منبع الألم. لكنه لم يغرق فيه. بل جعل منه نارًا مقدّسة — تلك التي ستُضيء لاحقًا كلَّ ما كان سيبيئه.

الفصل الخامس — الإهانات

«رأيتُ الخيانة، والعيون التي تلمع؛ / وبقيتُ واقفاً، حتى حين يُدخني الليل.»

— حمادين، «Inaltérable»

بظنّ الناس أنّ الأسوأ، بالنسبة إلى رجل، هو الجرح. وهذا غير صحيح. الأسوأ هو ما يأتي بعده: الإهانةُ البطيئة، المتكرّرة، الإدارية، لمن أعطى كلّ شيء ثم يُطلب منه الآن أن ينتظر دوره.

عرف حمادين المخيمات. والطواير. وقاعات الانتظار حيث يشيخ المرء واقفاً. و«عدّ غداً» التي، إذا جُمعت، تسرق السنين. عرف تلك الشبايك حيث تمسح نظرة إدارية اسمك دون أن ترى روحك قطّ؛ حيث لم تعد رجلاً له حكاية، وشجاعة، وتضحية، بل سطرًا في ملفّ، وملفًا بين ملفّات، ورقفاً.



ملء استمارة التسجيل لدى المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بيد واحدة: بيروقراطية المنفى، استمارة بعد استمارة.



بطاقة هوية لاجئ — جمهورية النيجر. من مواليد 3 يونيو 1998 في مينكا، الجنسية مالية. حُجِّب رقم التسجيل: الإنسان ليس شيفرة باركود.

انظر إلى هذه البطاقة. كل ما فيها صحيح: الاسم، والتاريخ، ومكان الميلاد، والجنسية. ومع ذلك يغيب عنها كل شيء. لا ترى فيها خدمته لتحالف دولي. ولا ترى الذراع التي تركها في ليلة 22 أغسطس. ولا ترى اللغة التي يُنقدها، ولا الأطفال الذين يناضل من أجلهم. برى فيها لاجئ، ورقم، ووضع قانوني. وضد هذا بالضبط انتصب حمادين: رفض أن يكون رقماً. واختار أن يكون صوتاً.

فثمة، في قصته، ظلم لا بد من تسميته. خدم حمادين من قالوا إنهم يدافعون عن السلام في الساحل. ودفع من لحمه. واليوم، نسوه. وهذا الكتاب هنا أيضاً ليذكرهم، بلا غضبٍ لكن بلا مواربة: إنهم مدينون له بما تفتقده هذه الأرض أكثر من غيره — الأمن، والاستقرار. لا مئة. بل دينا.

كان غيره سينهار، أو يغرق في المرارة. أما هو فاختار ما يختاره قلة: أن يُحوّل الإهانة وقوداً. فصار كل باب مغلق سبباً ليبنى بيته الخاص. وصار كل «عد غداً» يوم عملٍ انتزع من القدر. إنه لا ينتظر أن يُفتح له: بل يبني الفتحة بنفسه.

الفصل السادس — تادا كساهاك ليرنينغ: إنقاذ لغةٍ بسطرٍ من شيفرة

«يمكن إنقاذ ثقافةٍ بسطرٍ من شيفرة، وبيتٍ شعرٍ، وصوت.»

هنا تتقلب القصة مرةً ثانية — وهنا يصير الرجلُ الجريحُ، المهانُ، المنسيُّ، بناءً.

لماذا. لأنّ لغةً بلا كتابةٍ لغةٌ معلقةٌ على حافةٍ. ولأنّ شعباً يُمحي من الخرائط ينتهي به الأمرُ مَحوًّا من الذاكرة. ولأنّ حمادين لم يكن يحتمل فكرةً أن يكبر أطفالُ إدكسهاق دون مكانٍ واحد، في أيّ بقعةٍ من العالم، تُكتب فيه لغتهم وتُعلّم وتُحترَم. «الحاجةُ إلى معرفةِ أصولي»، كما يقول. من تلك الحاجةِ وُلدت تادا كساهاك ليرنينغ، مضروبةً في كلّ الأطفال الآتين.

متى. حين لم يكن أحدٌ يصدّق. وهذا هو التفصيل الذي يُصرّ حمادين على ألا يُنسى. لا راعي في البداية، ولا منظّمة، ولا وزارة. رجلٌ واحد، وحده، بفكرةٍ عدّها الآخرون غيرَ واقعية: أن يبني، من لا شيء، البيتَ الرقيي للغةٍ نادرة.

كيف. بالتعلّم. صار حمادين مطوّراً كما صار مترجماً: بالضرورة، ثم بالشغف. رجلٌ حاول العالم أن يكسره بكلّ وسيلة، فأعاد بناء نفسه في النسخة 3.0 — أقوى، وأعمق، وأكثر إنسانيةً من كلّ الخوارزميات مجتمعة. يكتب «بلغة JavaScript كما يكتب القصائد». يبرمج أدواتٍ ليستطيع حتى المنسيون أن يتكلّموا لغتهم وأن يفهموا. صمّم، صفحةً بعد صفحة، منظومةً حقيقية: معجماً للتدكسهاق، ونحواً، وعلمَ أصوات، ومكتبة، وحكايات، وخطاً زمنياً تاريخياً؛ ثم **Tadaksahak TV** و **Tadaksahak Radio**، بيتٌ مباشر، وإعادات، ونشراتٍ بعدّة لغات؛ ثم **Tudú**، مساعداً يعرف الموقع ويحجب عن الأسئلة؛ حتى كتاب، على دروب أهل إسحاق، يُباع ليبقي المشروع حياً.



ورشةُ رجلٍ وحده: حاسوب، وطاولة، وإرادةٌ إنقاذ لغة.

بأيّ شيء. بلا شيءٍ تقريباً. حاسوبٌ مستعمل، وحاسوبٌ محمول، وهاتف، ولاقطُ صوت؛ وإرادة، وليالٍ كثيرة. رجلٌ يبرج بيدٍ واحدة — اليمنى —، لأنّ الأخرى لم تُعدْ هناك. كلُّ سطرٍ يكلفه ما لا يكلف أحداً سواه، ويكتبه رغم ذلك.



مكان العمل: شاشة، ويدٌ واحدة، ولغةٌ تُتَقَد. من هنا تخرج منظومةٌ تاداكساهاك كُلُّها.

فالكَّابَةُ عنده فعلٌ مقاومة. كلُّ كلمةٍ تصويرٌ صلاةٌ، وكلُّ دالَّةٍ جرحاً أُعيدت خياطته. لا يكتب ليقرأ: يكتب كي يُتَذَكَّر. وكما يقول في رايّه: لا يعدّ الإعجابات، بل يعدّ الندوب. ثم، في يومٍ ما، جاء الجواب — لا من الخبراء، بل من الجمهور نفسه: 40,000 زيارة في 7 أيام.

أربعون ألفاً. في أسبوعٍ واحد. للغة ظنّها العالمُ محكومةً بالصمت، يحملها رجلٌ ظنّ العالمُ أنه محكومٌ بالزوال. من لم يُصدّقوا نالوا جوابهم. جوابٌ لا يسعه خطاب. بل يسعه رقمٌ، وما بعينه ذلك الرقم: كانوا قد نُسِوا؛ وها هم هنا.



«Andi Tanimert Houlan!» — شكرًا لكم جميعًا. ألف متابع في ثماني وأربعين ساعة على قناة Tadaksahak TV: جواب شعب للرجل الذي رفض أن يدعه يزول.

الفصل السابع — الرجل بين السطور

«إنه أب. إنه ابن. إنه أخ لكل الشعوب الجريحة.»

سيكون خطأ أن نرى في حمادين مجرد مؤسس، أو ناج، أو رمز. فهو، قبل كل شيء، إنسان — بما يعنيه ذلك من حنان وتناقضات.

إنه أب، وهذا يحكم كل شيء. في دفاتره، كما يقول، الأحلام ثلاث نسخ: واحدة له، وواحدة لأبنائه، وواحدة للأطفال الذين لن يعرفهم أبداً لكنه يحبهم منذ الآن بأفعاله. رأي، وعنقه في طوق طبي على سرير مستشفى، يترك يد رضيع صغيرة تلمس وجهه — صورة تقول، أفضل من أي شيء آخر، لماذا يرفض أن يتوقف.

إنه ابن — ابن أم رفضت الأمية كما يرفض حكم، فصارت، بقوة الإرادة، أحد الأصوات التي يصغي إليها مجتمعها. ما صنعتها الأم بنفسها، صنعه الابن لشعبه بأكمله. يحمل صوتها كما علمته أن يحمل صوته. إنه أخ لكل الشعوب الجريحة.

بؤمن بالله — لا عذراً، بل مصدر شجاعة؛ ويؤمن بالقدر، لا بالصدفة. قبل ليلة 22 أغسطس، كان يعزف على القيثارة تحت النجوم، ويشوي اللحم لأهله — أفراس بسيطة، من زمن كانت له فيه ذراعاه، أراد العنف أن ينتزعها منه دون أن يفلح تماماً.

عرف الحب، والفقد، والعودة المستحيلة. يتحدث عنه كما يتحدث عن الشهب: عارفاً أن الضوء وجيز، لكنه يترك أثراً إلى الأبد. واحتراماً للواتي عبرن طريقه — ولأنه وعد ألا يُسمي أحداً —، لن يقول هذا الكتاب أكثر مما يقول هو: أحب، وفقد، وأعاد البناء، وأحياناً نسي أن يعيش كي ينجو.

إنه محبرة الله وكاتب المنسيين؛ وكشف القضايا الخاسرة؛ والأب الذي لن يهرب أبداً، والصديق الذي ينادى منتصف الليل، والمحترف الذي يُحترم في صمت. يشك، ويبكي،

ويخطئ. ويمضي.



الليالي طويلة والأيام ثقيلة. لكنه، حتى منهكاً، يبقى جالساً إلى طاولته — ويبدأ من جديد.

إنه ليس هنا ليلعب. إنه هنا ليُضيء.

الفصل الثامن — الكُتبان تتحوّل غناءً

«أحمل حقيقتي، دون حاجةٍ إلى زِيٍّ؛ / أمضي بناري، فمن أجلهم أشتعل.»

— حمادين، «Inaltérable»

ثمّة شيءٌ لم يستطع لا الجرحُ ولا المنفى أن ينتزعه منه: الغناء.

في 2024، أصدر حمادين ألبومه الأول — *Les dunes de ma vie* («كُتبان حياتي»)، تحت العلامة التي أسماها Studio Les Dunes. عملٌ شخصي، «يستكشف موضوعاتِ الصمود، والرحلة الداخلية، والهوية». كلُّ أغنية، كما يقول، محطةٌ في هذه الرحلة عبر كُتبان الوجود.

سِتُّ أغنيات، كسِتِّ محطاتٍ على الدرب:

- **Debout encore** («واقفٌ من جديد») — نشيدٌ للصمود؛
- **Le Chemin d'Hamadine** («درب حمادين») — مسارُ رجلٍ فريد؛
- **Rien qu'un homme** («مجرد رجل») — الأغنية التي تحمل اسم الفكرة، حيث يرفض أن يُجعل منه أكثر، أو أقل، ممّا هو؛
- **Inaltérable** («ما لا يتبدّل») — عن القوّة الداخلية، تلك التي لا ينال منها شيء؛
- **Si elle fuit, ne cours pas** («إن فرّت فلا تركض») — تأملٌ في الحبّ والحرية؛
- **Respire** («تنفّس») — دعوةٌ إلى التمهّل، إلى الطمأنينة.

وحيث يشرح الكتاب، تحسم الأغنية. في أبياتٍ قليلة، يقول حمادين كلّ ما تستغرقه هذه الرواية فصولاً لترويّه:

كبرتُ بلا ذهبٍ، لكن غنيًّا بالأوجاع،

بين عالمين، ولغتين، وألفِ ساعة؛

رأيتُ الخوف، وعرفتُ الغياب،

لكنِّي صُغتُ صوتي على حافة الصمت.

وثمة الخيانة، ورفضُ الانحناء: «إخوة ضاعوا، ووعودُ تحطّمت، / لكنِّي أبقى كاملاً،
بستحيل أن أنثي.» وثمة، قبل كلّ شيء، ما لأجله يُبدع — لا للهجد، بل لأهله:

لا أغنيّ للمشاهدات، أغنيّ لشعبي،

لمن جاعوا، ولمن خنقوا.

أنا صدى معركةٍ، وأرضٍ منسيّة،

لكنِّي أحفظ كرامتي، لا تُروّض أبداً.

وثمة هذا المقطع، حيث نتلخّص قصّته كلّها في ثماني مقطوعات:

لا أعدّ الإعجابات، أعدّ الندوب (...)

سقطت ذراعي، لكنِّي حفظتُ صوتي،

وبقيت روحي حتى حين ارتجف كلّ شيءٍ برداً.

حمادين ليس اسماً مستعاراً، إنه أثر،

إنه رسالةٌ إلهية لا تحلّ محلّها نار.

رجلٌ فقد ذراعاً وما زال يُغني «واقفٌ دائماً» لا يحتاج إلى أن تُختلق له أسطورة. إنه
بؤلفها بنفسه، ويوقعها.

الفصل التاسع — الرؤية: شيخ المستقبل

«صحراوي في الروح، كوني في الرؤية، متواضع في اللحظة، وعملق في التاريخ.»

ماذا يريد حمادين، في نهاية المطاف؟

يريد أن تكف لغة عن الموت. يريد أن يستطيع أطفال أن يقولوا، يوماً: «هذا معجمنا، وهذا نحونا، وهذه حكاياتنا، وهذه قناتنا» — وأن يقولوها بلا نجل، دون أن يستأذنوا في وجودهم. يريد عالماً تُداوي فيه كل كلمة، ويفهم فيه كل نظر، ويقول فيه كل صمت الحقيقة.

ثمّة، في هذا الرجل، تركيب نادر: الغريو الذي يحفظ الذاكرة، والمطور الذي يضعها على الشبكة، والمقاوم الذي لا يخني، والعارف الذي يطلب ما هو أعلى منه. يمكن أن نسميه شيخ المستقبل: ذاك الذي يمشي نحو الغد حاملاً كل الأمس على كتفيه.



نظرة شيخ المستقبل: متّجهة نحو ما هو آتٍ، حاملة كل ما كان.

كان يستطيع أن يهرب. وأن يُرضي. وأن يقول ما يُراد سماعه. لكنه يختار الحقيقة، حتى حين تكلفه — لأنه يعلم أنّ رسالته أكبر من راحته. إنه شاهدٌ موثوق: لا بطلاً مؤسّطراً، بل حقيقياً.

بوماً ما، سيسمع هذا العالم صوته. لا لأنه سيصرخ أعلى. بل لأنّ حقيقته ستزن أثقل من كلّ النفاق مجتمعا. وفي ذلك اليوم، سيفهم ما حاول هذا الكاتب قوله منذ صفحته الأولى: أنّ رجلاً يمكن أن يكون جاثياً من التعب، ويبقى، رغم كلّ شيء، واقفاً في عالمٍ جاثٍ.

نادا كساهاك ليرنينغ ليست موقعا. إنها إعلان: نحن موجودون، ونكتب تاريخنا بأنفسنا، ولا نستأذن أحداً.

خاتمة — إنه لم يبدأ بعد

«لا أنتظر الفرص: أحاول أن أصنعها.»

أردت أن تُروى قصة حمادين.

لا يُروى حقًا. بل يُصنّى إليه. ويُقرأ. ويُعاش.

إنه الرجل بين السطور. ذاك الذي يُحوّل الألم رسالةً، والرسالة فنًا. ذاك الذي، وقد اجتمع له كلُّ ما يُغرق، رفض أن يغرق — ورفض، قبل كلِّ شيء، أن يترك مجتمعه في الجهل.

فقد ذراعًا؛ وحفظ العالم في اليد الأخرى. مُحي من الخرائط؛ فأعاد تسجيل نفسه في الذاكرة. اختزل إلى رقم؛ فأجاب بصوت. لم يُصدّق؛ فأجاب عنه أربعون ألف إنسان، في سبعة أيام.

والقصة لم تُختم. رجلٌ مثله لا يُروى بصيغة الماضي. أمامه، ربما، أرضٌ جديدة — المنفى، هذه المرة، قد يصير بدايةً — وحيثما ذهب، سترحل الرسالة معه: لغةٌ تتقدّم، وشعبٌ لا بُترك في الجهل، وأطفالٌ يُورثون شيئًا غير الصمت. وهذا الكتابُ نفسه ليس سوى حجرٍ أول. سينمو، كما ينمو كلُّ ما يلمسه حمادين.

فتلك هي حكمته، وهي تلخص كلَّ شيء: إنه لا ينتظر الفرص؛ بل يصنعها.

أمّا الكلمة الأخيرة، فقد كتبها هو بنفسه، في ختام أغنيته. ليست حصيلةً. إنها وعد:

حمادين... لم أنتهِ، أنا حيّ.

— رواية دُوت من أجل حمادين أغ مختار، مؤسس ومحرر تاداكساهاك ليرنينغ وTadaksahak TV، صاحب ألبوم «Les dunes de ma vie»، انطلاقًا من كلماته وأغانيه ووثائقه وصوره. الطبعة الأولى، على أن يُكملها ويُصحّحها بيده.

